عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

النصوص المحققة

كتاب
النفائس ومحاسن المجالس

للشيخ احمد بن محمد بن العريف

اخرجه وقدم له

نهاد خياطة

حلب ـ سوريا

التعريف بابن العريف

يعد ابن العريف من اكابر صوفية الاندلس ، وهو في معيار التصوف الاسلامي عموما علامة فارقة على طريق تطور الفكر الصوفي نحو مذهب وحدة الوجود الذي عقد لواءه مواطنه الاندلسي الآخر ، ونعني به الشيخ الاكبر محيي الدين ابن العربي .

وبعود الفضل للمستشرق الاسباني اسين بلاسيوس في الكشف عن هذا الصوفي العظيم ، والاديب اللامع ، والشاعر المجيد ، بما بذله من جهد في تحقيق كتابه الموسوم بـ « محاسن المجالس » ، والتهاره الى الدور في كتاب طبع في باريس عام ١٩٣٢ ، قدم بين يديه بدراسة قيمة بالفرنسية اشتملت على ترجمة لابن العريف وعصره وعلى تحليل لمذهبه في التصوف وابراز لخصائصه .

وفيما يلي نقدم دراسة مبنية بصفة اساسية على دراسة بلاسيوس ، في شقيها البيوغرافي والتحليلي ، بعد ان حذفنا منها ما راينا انه غير ضروري ، واضفنا اليها ما رايناه انه يجلي غموضها ، ويوضح مقاصدها ، مع الاشارة هنا وهناك الى المراجع فيما نجدر الاشارة اليه الماما للفائدة وايفاء للغرض ، لا يحدنا في ذلك الا ما قد توفر لدينا منها .

القسم الاول : ترجمة ابن العريف وعصره

١ ـ اسمه ونسبه

هو ابو العباس ، احمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ، من قبيلة صنهاجة ، وهم فخذ من حمير قدموا الى المغرب من اليمن . كان ابوه من مواليد طنجة المغرب ، وكان في حرس قصبة المرية بالاندلس (ومن هنا جاءت شهرة ابنه احمد بابن العريف) على عهد اسرة معن بن صمادح ، احد ملوك الطوائف التي حكمت المرية واتخذتها عاصمة لها بين عام ٤٢٣هـ (١٠٣١ م) وعام ٤٨١ هـ (١٠٩١ م) .

كانت ولادة ابن العريف ـ ولعل ذلك كان بالمرية ـ عام ٤٨١ هـ (١٠٩٠ م) اي قبل عام واحد من زوال الدولة الصمادحية ، وكانت وفاته في مراكش عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)، وعلى هذا يكون ابن العريف قد عاش عمرا ناهز الخامسة والخمسين(١) .

٢ ـ نساج ام عالم ؟

اضطر ابوه نحت وطاة ضيق ذات يده الى ان يعهد بالصبي الى نساج يعلمه الحرفة ، لكن الصبي كان شديد النزوف عن تعلم الحرفة التي ارادها له ابوه ، شديد التعلق ـ في الوقت ذاته ـ بتعلم القرآن والحديث ورواية الاخبار . وكاد الاب ان يقلع في ثني ابنه عن تحقيق ما كان يصبو اليه لولا اصرار الصبي على طلب العلم ، وقد ادرك الاب خطاه في توجيه ابنه الوجهة التي ما كان يصلح لها بعد ان جاء منه « عالم نسيج وحده ! » .

درس ابن العريف القرآن والحديث في المرية على مشاهير علماء عصره . وكان من اكثر الكتب تاثيرا في تكوين ثقافته الادبي ولغته اللغوية كتاب « النصوص في اللغات والاخبار » الذي صنفه صاعد بن الحسن ابو العلاء الربعي البغدادي . وما كادت تنقضي المدة الوجيزة التي اقتضتها علومه حتى كان منه معلم بارع في فنون الادب واللغة والاخبار امتدت شهرته من المرية الى سرقسطة وبلنسية حيث اسند له في هذه الاخيرة وليفة المنصب . هذا الى براعة في الخط نالت ثناء من ترجموا له واستحسانهم .

لكن شهرة ابن العريف لم تكن ناتجة عن كونه فقيها محدثا متمكنا من علم مصطلح الحديث والقراءات ، او عن كونه شاعرا وناثرا بارعا بمقدار ما كانت ناتجة عما اتصف به من تقوى

وصلاح وزهد واستقامة رفعته الى مصاف اولياء الله الصالحين . لقد كتب عنه اليافعي في « مرآة الجنان » واصفا اياه بـ « الشيخ الكبير العارف بالله الشهير ذو المواهب واللطائف والعلوم الربانية والمعارف » وبانه كان « متناهيا في الفضل والدين وكان المريدون والعباد والزهاد يقصدونه »(٣) .

٣ ــ المرية تحتج على احراق كتب الغزالي

كانت المرية ، حيث ولد وعاش ابن العريف ، ملتقى هاما ومركزا رئيسيا لصوفية الاندلس ، وكانت تشتهر بها تعاليم ابن مسرة(٣) وطريقته التي كان لها انصارها المتحمسون ومريدوها المخلصون بالرغم من انقضاء قرنين على وفاة شيخها المؤسس، وكان اتباع ابن مسرة منتشرين في جميع انحاء اسبانيا الجنوبية ولا سيما قرطبة ولشبونة ــ وهي قرية صغيرة قريبة من المرية تقوم على الضفة اليمنى من النهر الذي يسمى باسمها . وقد كان ظهر في المرية ، قبيل ظهور ابن العريف ، صوفي كبير تمتع باحترام العامة ومحبتها ، هو محمد بن عيسى الأليري ، كان يتكلم على رؤوس الاشهاد في الساحات العامة عن اتصال الانسان بالله بمعنى ينطوي صراحة على مذهب وحدة الوجود . وقد اصبحت المرية في مطلع القرن السادس الهجري ، وفي ظل السلطة المطلقة التي كانت لحكامها المرابطين ، العاصمة الروحية لجميع صوفية الاندلس . فقد انطلقت منها صيحة الاحتجاج الوحيدة على احراق كتب الامام ابي حامد الغزالي بناء على فتوى من قاضي قرطبة ابن حمدين وأمر من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين ، وما كان من علماء المرية الا ان اصدروا فتوى مضادة تسجبوا فيها فتوى القاضي ويرؤوا الغزالي مما نسب اليه من كفر وزندقة . هذا بينما اكتفى صوفية مراكش وفاس وقلعة بني حماد بالاحتجاج الصامت دون أن تبلغ بهم الجراة الى اتخاذ اجراء موحد .

٤ ــ الميورقي وابن برجان

كان يعاصر ابن العريف صوفيان ربما كانا من اتباع ابن العريف ومريديه وربما لم يكونا كذلك ، لكن المقطوع به انهما كانا يذهبان مع ابن العريف مذهبا واحدا في التصوف . وربما كان لوحدة المذهب هذه صلة وثيقة بالمصير المشترك الذي لقيه الثلاثة . كان اولهما ابو بكر محمد بن الحسين الميورقي، نسبة الى جزيرة ميورقة ، وكان يقيم في غرناطة . كان فقيها ظاهريا وعالما بالحديث ، اقام سنوات عدة في مكة والاسكندرية حيث انمى ثقافتيهما بتحصيله العلمي ، ولما عاد الى الاندلس انقطع الى العبادة والزهادة . والثاني هو ابو الحكم ابن برجان(٤) ، كان يقيم في اشبيلية ، واصله من شمال افريقية . وكان كصاحبيه صوفيا اكثر منه محدثا،كما انقطع كصاحبيه الى حياة العبادة والزهد في الدنيا . من تصانيفه « شرح الاسماء الحسنى » و « تفسير القرآن » ، وهما من اشهر تصانيفه ، لكنه ترك المصنف الاخير دون التمام وما بقي منه الا نسخة مخطوطة . تميز تفكيره بجنوح شديد الى الباطنية تجلى في ممارسته لـ « حساب الجمل » وتطبيقه على نصوص القرآن حيث تخلع القيمة العددية لكل حرف من حروفه الى عمليات حسابية مختلفة تعتمد اساسا للتنبؤ بالاحداث خيرها وشرها ــ لا سيما ما يسبق منها بالفتوح والانتصارات الحربية . ويقال ان ابن برجان قد تنبأ في « تفسيره » بان الشمس سوف تستعاد من ايدي الصليبيين على يد السلطان صلاح الدين ، وانه قد عين السنة التي تتحقق فيها نبوءته(٥) . هل كان لابن العريف نصيب في ممارسة هذه الشعوذة ؟ وما يحملنا على هذا التساؤل هو ما نسبه المؤرخون الى ابن العريف من انه كان يذهب وابن برجان مذهبا واحدا في التصوف . مهما يكن من امر فاننا لا نجد في « محاسن » ابن العريف اثرا لمثل هذه التمتمات.

٥ ــ طبيعة الحركات السياسية في الاسلام

يقول اليافعي في « مرآته » :

« ولما كثر اتباعه خاف منه السلطان وتوهم ان يخرج عليه فطلبه فاحضر الى مراكش فتوفي في الطريق قبل ان يصل،وقيل بعد أن وصل »(٦) . ولهذا الخوف ما يبرره لان كثيرا من الحركات السياسية في الاسلام كانت في بداياتها حركات دينية بحتة لا يبدو عليها ظاهريا ان لها مطامع سياسية او انها تبغي الوصول الى السلطة أو الاطاحة بالسلطان القائم . لكن ابن بلاسيوس ، يذكر فيما يتعلق بابن العريف ان الامر « ربما » كان ناشئا عن تخوف السلطان علي الذي خلف ابن تاشفين ، ولا يقنع بذلك لاننا نفتقر الى دليل على المصير الذي لقيه كالدليل الذي يتوفر لدينا عن ابن برجان الذي يذكر الشعراني في « طبقاته » انه قد حكم عليه السلطان بالموت ، «وقالوا للسلطان ان البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلدة وثلاثين فارسل له من قتله وقتل جماعته »(٧) . وفي السنة التي تلت وفاة ابن العريف ، اي في سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م) ، قام الشيخ الصولي الاندلسي الشهير ابو القاسم احمد بن حسين ، المعروف بابن قسي(٨) بثورة على المرابطين (بلاسيوس:الموحدين؟) ، عوامها فصائل من الحرس الديني الذي شكله من مريديه الذين كانوا يتبعون نفس تعاليم ابن العريف وحكم الفيلم سلبية على ساحل الاطلسي فترة دامت عشر سنوات ، ثم تم القضاء عليها في عام ٥٤٦هـ (١١٥١م) ، وهو العام الذي توفي فيه ابن قسي .

٦ ــ الثلاثي في مراكش

يذهب بلاسيوس الى ان السبب الذي حمل السلطان على طلب احضار ابن العريف الى مراكش هو حسد قاضي المرية ابن الاسود له بما ناله ابن العريف من مكانة في نفوس الناس واشتداد اقبالهم عليه واستمائهم له فعمد الى تحرير شكوى بين فيها مواطن الزندقة في مذهب ابن العريف ورفعها الى سلطان مراكش ، الذي امر باحضاره مع مريديه أو زميليه ابي بكر الميورقي وابن برجان .

ثم يروي المؤرخون كيف القي القبض على ابن العريف واقتيد الى مراكش في شيء من التفصيل الملون بشتى من الكرامة والاسطورة . فقد رووا ان والي المرية امر بابن العريف فشتل على مركب صغير الى الغوطة ، ثم انفذ اليه وهو في عرض البحر من قيد يديه ورجليه بالسلاسل والاغلال بناء على ايحاء من القاضي ابن الاسود .

كان لهذا الاجراء وقع شديد على نفس ابن العريف الذي راح حين وضعوه في القيود : « اللهم ارعيهم كما ارعيوني ! » ، او شيئا من هذا القبيل . يذكر المؤرخون ان دعاءه على المؤامرين به سرعان ما احدث اثره في الموفد الذي ارفده والي المرية لكي يقيده وقد فسره الافرنج وهو في طريق عودته الى المرية .

ولما وصل ابن العريف الى الغوطة كان في انتظاره موفد من

قبل السلطان بحمل امرا يملك فؤاده ، فادرك ابن العريف ان السلطان لم يكن يرغب في ان يلحق به ما لحقه من تألم وتنكيل، وذلك بعد ان اتضح له ان سلطان المرية كانت مبالغة في شأن ابن العريف ، وان الذي حملها على اتخاذ هذه الاجتراءات الشديدة بحقه لم يكن الباعث عليه سوى الكراهية والحسد والتعصب الاعمى .

كتب ابن العريف فيما بعد انه ما كان يرغب في ان يتعرف السلطان اليه ، لكن اما وقد تم التعارف فالخير فيما اختاره الله . ولما توجه الى القصر لمقابلة السلطان استقبله هذا بالحفاوة والتكريم وبما يليق بالشيخ من تقدير واحترام. سأله السلطان ان كان له حاجة ، فاجاب الشيخ ان لا حاجة له سوى ان يدعوه يذهب الى حيث يريد ، فسارع السلطان الى الامر بذلك ، لكن - على ما يبدو - ما كانت هذه الحرية ذات فائدة كبيرة له ، اذ بعد فترة قصيرة اقعده المرض ثم توفي ودفن في مراكش بعيدا عن اهله ومريديه .

٧ - هل مات مسموما ؟

من المؤرخين من يذهب الى ان ابن العريف قد مات ميتة طبيعية ، ومنهم من يقول انه مات مسموما واصابع اتهامهم تشير الى قاضي المرية الذي غاظه ما لقي ابن العريف لدى السلطان من حفاوة وتكريم ، فانفذ اليه من دس له السم في بالنجانة فمات سنة ٥٣٦ هـ (= ١١٤١ م) ، لكن احد اقرب مريديه اليه - وهو ابو عبدالله الغزال - يجزم بانه مات ميتة طبيعية وهو ما يزال في الدولة قبل ان يصل الى مراكش . لكن المؤرخين جميعا متفقون على انه قد دفن في مراكش الى جوار صديقه ابن برجان الذي توفي في مراكش بعد فترة وجيزة من استدعاء السلطان ، وهو نفس ما حصل لابن العريف .

٨ - المصير الاسود الذي لقيه ابن الاسود

كان لاشتهار ابن العريف بالولاية والصلاح ، وللظروف الغامضة التي احاطت بموته ، اكبر الاثر في نفس السلطان الذي تملم اشد الندم على ان اعار اذنا صاغية لوشاية القاضي ابن الاسود ، وقد بلغ به الحزن مبلغا عظيما حين لمس مابدا من اسى ولوعة على وجوه الذين شيعوا جنازته ، فامر بفتح تحقيق لمعرفة الاسباب التي ادت الى وفاته . والروايات تجمع على ان ابن العريف قد ناله من اضطهاد بسبب حسد قاضي المرية ابن الاسود الذي لفق له تهمة الزندقة لكي يبعده عن المرية وانفذ اليه من دس له السم في الطعام بعد ان يراه السلطان من التهمة وحياه بالعطف والاكبار . ولما علم السلطان بما فعل ابن الاسود اقسم الا ان ينزل به نفس ما انزله بابن العريف ، ثم امر به فاقتيد بالسلاسل والاغلال الى سوسة حيث مات غريبا مسموما.

القسم الثاني : تحليل المحاسن

١ - المنازل او المقامات

يعد ابن العريف المنازل او المقامات الصوفية التي يمر بها السالك في طريقه الواصل الى الحق تعالى ، ويفرد لكل منها فصلا وقد رتبها كما يلي: المعرفة، والارادة، والزهد، والتوكل، والصبر ، والحزن ، والخوف، والرجاء ، والشكر، والمحبة، والشوق(١) . لكنه يضيف الى الفصل الثالث عشر الحاوي على مجمل لعالم مذهبه مترلتين اخريين لم ترد في الفصول المقدمة ، وهما التوبة والانس . والحق اننا - بقول بلاسيوس - اذا صرفنا النظر عن عدد المنازل التي تزيد او تنقص بين فصل واخر ، نجد ان ابن العريف لم يات بجديد يسترعي الانتباه فيما يتعلق بالاصطلاحات وما تنطوي عليها من معان مثل ان قام في القرن المصري بوضع هذه الاصطلاحات قبل ابن العريف بثلاثة قرون(١) . انما الشيء الجديد في « المحاسن » هو النحى الباطني الذي تطورت من خلاله المعاني التي انطوت عليها هذه الاصطلاحات . فالفصل الاول ، وكذا الفصلان الثاني عشر والثالث عشر ، هي فصول بالغة الافادة فيما يتعلق بهذه النقطة حتى انها لتستوجب - في نظرنا - ان نتناولها بالدرس قبل غيرها من الفصول . واذا نحن انعمنا النظر في « المحاسن » خلصنا الى نتيجة هي : ان ابن العريف لم يكتبها لجمهور المريدين الذين يأملون بالتحقق الصوفي، ولا حتى للسالكين الذين قطعوا منازل على طريق التحقق ، وانما كتبها خصيصا للذين بلغوا منزلة الوصول او الاتحاد ونالوا درجة المعرفة . يترتب على ذلك ان جميع المنازل - ماعدا المترلة الاخيرة ومنزلة المحبة - هي درجات ناقصة ولا يمكن نسبتها الا للعامة في نظر ابن العريف .

يقول بلاسيوس : لهذا الوقف الارستقراطي سوابق في تصوف الشارقة ، لكنهم لم يتخذوه معيارا حصريا في تطوير الموضوع . والحق اننا نجد اشارات متفرقة هنا وهناك عند السراج في « لمعة »(١١) والقشيري في « رسالته »(١٢) تدل على هذا المعيار فيما نقلاه من اقوال لبعض المتصوفة الذين اوردوا تفسيرات للمقامات الصوفية تنطوي على المضمون الذي اراده ابن العريف في « محاسنه » ، لكننا لا نجد في آثار الشارقة مبحثا متماسكا يطبق فيه هذا المعيار بهذا الوضوح وعلى هذا النحو من المنهجية .

٢ - الموجود الوحيد هو الله !

يذهب ابن العريف الى ان العارف المتحقق يحصل لديه اقتناع بان الله وحده هو الموجود على الحقيقة ، وانه - تبعا للاشعريين مما يذكر او يشعر او يريد او يفعل انما يفعل للمتمن تلقاء نفسه ، بل ان الفاعل بحق هو الله تعالى . فالمنازل وما انطوت عليه من فضائل تفقد كل قيمة لها في نظر ابن العريف ، وهي ليست الا غاية الى الغاية وحسب ، وانما هي حجب تحول بيننا وبين الوصول الى الله بمقدار ما هي سوى الله. فالكون الشاسع الذي يفصل بين القديم والمحدث، والخالق والمخلوق، يدعونا الى نفي كل شبه او تماثل بين الفئتين من الموجودات ، ويجعل كل محاولة للوصول الى الله ضربا من المستحيل ان لم تكن بواسطة الله . فالله وحده هو الذي يوصل الى الله ، اما المقامات او المنازل والاعمال العبادة بسبب انتفاء صلة الوجود عنها ، فهي ليست غير مجتبة وغير مفضية الى الله وحسب ، وانما هي عقبات في الطريق ، وموانع من الوصول، ذلك الوصول غير الممكن بسبب من تنزه الله عن الخلق . زد على ذلك ان الواصل لا يمكن أن يكون له ارادة او رجاء او شوق لكي يحصل على ما سبق له الحصول عليه .

والحق اننا اذا نظرنا الى المنازل من هذا المنظور وفي ضوء هذا المبدأ ، وجدناها تؤدي لونا من التنافس عند العارف .

فالزهد بالمعنى العام يفقد معناه عند ابن العريف لانه « حبس النفس عن الملذوذات وامساكها بعد تفريق المجموع وترك

طلب المفقود وعن فضول الشهوات ومخالفة داعي الهوى وترك ما لا يعني من كل شيء » لانه « تعظيم للدنيا واحتباس على ابعادها وتذييب الظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها». اما الزهد — كما يراه ابن العريف — هو « صرف رغبة القلب اليه وتعلق الهمة به والاشتغال به عن كل شيء يتولى هو سبحانه حسم هذه الاسباب عنك » .

والتوكل عند ابن العريف هو « التوكل في تخليص القلب عن علة التوكل » لان المتوكل « متى طالع بتوكله عوضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا » .

واما الصبر « فهو من المنازل العوام ايضا لان الصبر حبس النفس على المكروه وغض اللسان عن شكواه ومكابدة القصص في تحمله وانتظار الفرج عند غالبته » انما الصبر عند ابن العريف هو « الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى » .

« واما الحزن فانه من منازل العامة وهو انخلاع عن السرور وملازمة الكآبة لتاسف على فايت او توجه لممتنع وانما كان من منازل العامة لان فيه نسيان المنة والبقاء في رق الطبع وهو في مسلك الخواص حجاب لان معرفة الله جل جلاله جلى نورها كل ظلمة وكشف سرورها كل غمة » .

« واما الخوف فهو من منازل العوام لانه انخلاع عن السرور وملازمة الاسف والتيقظ له بالوعيد والحذر من سطوة العقاب . وليس في منازل الخواص خوف لانه لا يليق للعبد ان يعبد مولاه على وحشة من نظره ونفرة من الانس به عند ذكره » . « واما اهل الاختصاص فانهم جعلوا الوعيد منه وعدا والعذاب فيه عفوا لانهم شاهدوا المبلى في البلاء والمعذب في العذاب فعدموا ما وجدوا في جنب ما شاهدوا . » « ومن كان مستغرقا في المشاهدة جائلا في بساتين الانس فلا يبقى للخوف بساحته اسم لان المشاهدة توجب الانس والخوف يوجب القبض . »

« وللخواص الهيبة وهي اقصى درجة يشار اليها في غاية الخوف لان الخوف يزول بالعفو وبالامن ومنتهاه خوف الشخص على نفسه من العقاب فاذا امن من العقاب زال الخوف والهيبة لا تزول ابدا لانها مستحقة للرب تعالى بوصف التعظيم والاجلال وذلك الوصف مستحق له على الدوام وحده الهيبة تعارض المكاشف في اوقات المناجاة وتصون المشاهد في احيان المسامرة وتقصم المباين بصدمة العزة » .

والرجاء عند الخواص لا معنى له لانه « شكوى ومطالبة عوض وعمى » ، وهو « وهن وعقال وفترة وعلة وفي المحبة وصمة » ، وكل رجاء يكون محله غير الله انما هو افك ، قال تعالى : « افكا الهة دون الله تريدون » ، « فما ترك وجوده وجوده ورؤيته لهم غرضا ولا ابقى وجوده لهم رجاء ولا غادر حبه لشيء في الكونين في قلوبهم اثرا » .

اما الشكر فهو عند ابن العريف « من اضعف منازل القوم لانه حجاب عنه ولانه معارضة طوله ونعمته بحولك وقولك » . وهو لا سبيل الى القيام به واداء حقه لان « شكرك عن تعالى على النعمة نعمة مستجدة يجب له عليك فيها الشكر فالشكر يفتقر الى الشكر فمتى تقوم بحقه ؟ » .

واما المحبة « فهي اول اودية الفناء والعقبة التي يتحدر منها على منازل المحو وهو اخر منزل للتلبي فيه متقدمة العامة بمسافة الخاصة وما دونها اغراض لاغراض للدوام منها شرب وللخواص شرب » . « واما محبة العوام فانها تثبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الاجابة للعناية » . « واما محبة الخواص فهي محبة خاطفة تقلع العبارة وتدقق الاشارة ولا تنتهي بالنعوت ولا تعرف الا بالحيرة والسكوت » .

٢ — عين الحقيقة

كل المنازل التي يعددها ابن العريف من ارادة وتوبة وزهد وتوكل وصبر وحزن وخوف ورجاء وشكر ومحبة وشوق وانس انما هي مراحل يقطعها السالك لكي يصل الى « عين الحقيقة » حتى اذا شهد « عين الحقيقة » اضمحلت فيها احواله ووصل الى مقام الفناء عما سواه سبحانه ، ذلك ان جميع المقامات مرادة الى هذه الغاية وهي النظر الى الله تعالى ودخول الجنة . في مقام الفناء يفنى من الواصل كل ما لم يكن لدخول الجنان اهلا ويبقى منه ما لم يزل .

يستنتج بلاسيوس من كلام ابن العريف ان رؤية الله تعالى ممكنة في حالتين : احداهما بعد الموت الفيزيائي ، والثانية بعد الموت الصوفي — اي حينما يفنى عن ساحة الواعية كل ما هو دنيوي وزمني ولا يبقى منه الا الروح الخالدة ، ويفنى بذلك المحبة الالهية . وهذه الرؤية في الحالتين لا تنال الا بفضل من الله وتلطف منه تعالى يهبها لمن يشاء من عباده(١٣) .

٤ — مذهب السكونية

يقول بلاسيوس : ان هذا الموقف البطولي المتمثل بالزهد في كل ما هو سوى الله ، بما في ذلك المقامات والاحوال الصوفية والالطاف والافضال الالهية ، ينبغي لنا ان نبرزه لما له من اهمية خاصة في تاريخ الروحانية الاسلامية . لقد سبق وقلنا ان لهذا الموقف سوابق في تعاليم الصوفية المشارقة اقدم من ابن العريف ، لكن الفضل يرجع الى هذا الاخير في اعتماده منهجا تبعه بدقة بالغة على كل منزلة من منازل الحياة الروحية . ولابد ان يكون هذا هو السبب الذي جعل من التصوف الاندلسي ، الوارث لفكر ابن العريف وطريقته في التربة ، يتمسك تمسكا شديدا بهذا الموقف من الزهد على مدى قرون ، ثم يدلي به الى الطريقة الشاذلية ، التي تعد ابن عباد الرندي (القرن الرابع عشر الميلادي) واحدا من متاخري ممثليها ، الذي جعل منها الاساس لكل الحياة الروحية في الاسلام ، وكان ذلك قبل قرن من بوحنا الصليبي الذي جعل من نفس هذا الموقف اساسا للحياة الروحية في المسيحية .

يقول بلاسيوس : ليس هنا مجال رد هذا الموقف الى اصله البعيد ! الذي هو الانجيل !(١٤) القائم على الزهد في كل ما هو غير الله بغية الوصول الى الله ، انما لا يسعنا الا ان نشير الى ما يتعرض له هذا الموقف من خطر جسيم يتمثل في الانحدار بصاحبه الى السكونية (Quietisme) اذا ما بالغ به مبالغة شديدة . ومن المؤسف ان نجد في الاسلام كما في المسيحية امثلة كثيرة على هذا الموقف الانحرافي . وسببه ان الحد الفاصل بين السكونية والتوكل المسيحي هو

من الغموض واللبس بحيث يجعلنا لا نندهش أو لا نعجز عن تفسير امثال هذه الاختلافات الروحية: فالنفس القائمة بعديتها وفعاليتها امام الحقيقة غير المتناهية والفاعلية الكلية للكائن الالهي ، العلة الوحيدة لكل كائن ـ ان هذه النفس ما فيسر ان تقع في هذا الشعور من الهاوية المسيحية وما ايسر ان تصير الى الفناء نتيجة لقناعتها بعدم جدوى كل فعل يصدر عن كل مخلوق . ان نعيد الله كما لو ان اعمالنا لا قيمة لها ـ ذلكم هو برنامج انكار الذات في المسيحية ، في السكونية ينتهي كل شيء الى « دعه يذهب » Laissez - Aller والى نفي الفعل Inaction ، ذلك ان الافعال لا قيمة لها بحد ذاتها من حيث انها النتيجة اللازمة للعلة الالهية الاولى والوحيدة . واننا لنجد لذلك تجد التباسا يكمن في كثير من العبارات الصوفية ، مسيحية او اسلامية ، تتصل الصلا وثيقا بهذا الموضوع الخطير. يقول ابن العريف : « وانما عين الحقيقة عند القوم ان يكون قايما باقامة الحق له ، محبا بمحبته له ، ناظرا بنظره له ، من غير ان يبقى منه بقية تقف على رسم ، او تناط باسم ، او تتعلق بأثر ، او توصف بنعت ، او تنسب الى وقت »(١٥) .

مثل هذه الصيغة وكثير غيرها مما حفل به كتاب « المحاسن » انما ترتد الى اصحاب مذهب السكون ومذهب وحدة الوجود ، وهو ما يفسر لنا اسباب ايثار شيخ المرسية ـ ابن العربي ـ لشيخ المرية ـ ابن العريف ـ والاقتباس منه في « فتوحاته » تعزيزا لاطروحاته البالغة الجراة المرتكزة على مذهب وحدة الوجود ذات النزعة التشبيهية . وفي «الفتوحات» سبب جديد يحملنا على الاهتمام بـ « محاسن » ابن العريف ومركزه في تطور التصوف الاسلامي ، اذ ما من احد ينكر ما لابن العربي من تاثير خصب في تطور مذهب وحدة الوجود الاسلامية ، في وجهيها الفارسي والعربي .

***

تذييل

« التعريف بابن العريف »

١ ـ رجع بلاسيوس في ترجمته لابن العريف الى : ابن بشكوال ، والضبي ، ومعجم ابن الابار ، واحمد بابا ، وابن خلكان ، وتكملة ابن الابار لابن نقطة ، والجامي في « نفحاته » . وبحثنا نورالدين شريبة في هامش « طبقات الاولياء » لابن الملقن ، القاهرة ١٣٩٢هـ ، ص ٥٧٤ الى : هدية العارفين ١/٨٢ ، المعجم ١٨ ـ ٢٢ ، وفيات الاعيان ١/٦٧ ، ابن البارك الفاسي : السعادة الابدية ص ٥٠ ، ٥١ ، نفح الطيب ١٥٩١ ، ١٦٠٩ ، ايضاح المكنون ٢/١٩٧ ، شذرات الذهب ٤/١٢ ، فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية ٢/٢٢١ ، بروكلمن ١/٤٣١ ، معجم المؤلفين ٢/١٦٤ ، التشوف ١١٧ ـ ١٢٢ ، العبر ٤/٦٨ ، الاعلام ١/٢٠ ، الحلة السيراء ٢/١٩٧ .

٢ ـ الباقي ، مرآة الجنان ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، بلا تاريخ .

٣ ـ عرفه الدكتور عثمان يحيى في السفر الثاني من « الفتوحات » في استدراك الفتوحات ، ص ٥١٧ بما يلي: هو محمد بن عبدالله بن مسرة الجبلي ، مفكر باطني صوفي اندلسي ، ولد بقرطبة عام ٢٦٩ (٨٨٢) ومات ودفن قريبا منها عام ٣١٩ (٩٣١) ، الدراسة الوحيدة والاصيلة عنه هي بقلم المستشرق الاسباني الكبير اسين بلاسيوس وعنوانها :

Abenmasarra Y su Escuela, Origines de la Filosofia Hispano-Musulmana Madrid 1914

٤ ـ عرفه الدكتور عثمان يحيى في استدراك الفتوحات، السفر الاول من الفتوحات ، ص ٥٠٢ بما يلي : هو ابو الحكم عبدالسلام بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن اللخمي ، الاشبيلي ، متكلم صوفي اندلسي ، اصله من شمال افريقية . الماع نجمه في اشبيلية ، النصف الاول من القرن السادس الهجري ، مؤلفاته الموجودة الان : شرح الاسماء الحسنى ، وتفسير القرآن (؟ ايضاح الحكمة ، ؟ توفي في مراكش عام ٥٢٦ (١١٤١) .

٥ ـ اشار ابن العربي الى نبوءة ابن برجان بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة . يرجع الى السفر الاول من « الفتوحات » بتحقيق الدكتور عثمان يحيى ، الفقرة ٤٧٢ ص ٦٨/١٦٧ .

٦ ـ يرجع الى الباقي في « مرآة الجنان » ص ٢٦٧ .

٧ ـ الشعراني ، الطبقات الكبرى ، الجزء الاول ، ص ١٧ ، القاهرة ١٣٧٣هـ .

٨ ـ عرفه الدكتور عثمان يحيى في استدراك الفتوحات، السفر الثاني من الفتوحات ، ص ٥١٧ بما يلي : هو ابو القاسم احمد بن حسين ، صوفي اندلسي شهير ، قام بثورة ضد المرابطين مات بسببها عام ٥٤٦ (١١٥١) ، من اسماء الخطية الباقية « خلع النعلين » او النزعة الباطنية الواضحة، على الكتاب شرح لابن عربي، هو موجود ابضاء ترجمته ومصادرها في موسوعة الاسلام (ط . جديدة ، نص فرنسي) ٢/٨٣٦ ـ ٤١ .

٩ ـ يرجع في درس « المقامات والاحوال » الى ابي نصر السراج الطوسي ، صاحب « اللمع » ، بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، القاهرة ١٣٨٠هـ .

١٠ ـ هو ابو الفيض ، ذو النون بن ابراهيم المصري : كان ابوه نوبيا . توفي بالجيزة سنة خمس واربعين ومائتين ، اتهم بالكفر والزندقة وحمل من مصر في الحديد الى بغداد على يد الخليفة المتوكل الذي يراه مما نسب اليه واطلقه . يحملنا نورالدين شريبة محقق كتاب « طبقات الصوفية » من اجل ترجمته الى : حلية الاولياء : ج٩ ص ٣٢١ ـ ٣٩٥ ، ج ١٠ ص ٣ ـ ٤ ، طبقات الشعراني : ج ١ ص ٨١ ـ ٨٤ ، الرسالة القشيرية : ص ١٠ ، وفيات الاعيان : ج ١ ص ١٢٦ ، صفة الصفوة : ج ٤ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣ ، شذرات الذهب : ج ٢ ص ١٠٧ ، مرآة الجنان : ج ٢

ص ١٤٩ ، تاريخ بغداد : ج ٨ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٧ ، البداية والنهاية : ج ١٠ ص ٣٤٧ ، سير اعلام النبلاء : ج ٢ ق ١ ورقة ١٤٢ .

١١ـ هو ابو نصر ، عبدالله بن علي السراج الطوسي ، الملقب بطاووس الفقراء ، توفي سنة ٣٧٨هـ ، وهو صاحب الكتاب الشهير : « اللمع » الذي يقول عنه نيكلسون : «ومدرسة عليا لتخريج الفحول من المتصوفين المتقدمين» ، (يرجع الى كتابه « اللمع » بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، القاهرة ١٣٨٠هـ) .

١٢ـ هو الامام ابو القاسم عبدالكريم بن هوزان القشيري النيسابوري الشافعي ، ولد سنة ست وسبعين وثلاثمائة وتوفي سنة خمس وستين واربعمائة للهجرة ، وكانت ولادته في بلدة « استوا » التي كان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، من كتبه « الرسالة » التي تعرف بـ « القشيرية » و « لطائف الاشارات » في تفسير القرآن ، طبع حديثا ، (يرجع الى الرسالة القشيرية : تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف ، القاهرة ، بلا تاريخ) .

١٣ـ في هذا الصدد يقول ابو سعيد الخراز : « من ظن انه يبلغ الجهد بغير بذل المجهود فمتمن ، ومن ظن انه يفنى الجهد بغير فقد فمتمن » (عن الرسالة القشيرية ص ١١٥) .

١٤ـ يرجع الى القاسم حول : تاريخ التصوف في الاسلام ، فصل « الطريقة المحمدية » ، ص ٩٣ ـ ١٠٤ ، ترجمة صادق نشأت ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٥ـ اصل « بني الحقيقة » كما يوردها ابن الشريف ثابت في الحديث النبوي الشريف : « من آذى لي وليا فقد استحل محاربتي ، وما تقرب الي عبدي بمثل اداء الفرائض ، ومما يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفؤاده الذي يعقل به ولسانه الذي يتكلم به ، ان دعاني اجبته وان سألني اعطيته وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن وفاته وذلك لانه يكره الموت وانا اكره مساءته » : الشيخ محمد المدني ، الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية ، ص ٢٠ ، القاهرة ١٣٨٧هـ) .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال الاستاذ العلامة ابو العباس احمد بن محمد الصوفي النصنهاجي ؛ رحمة الله عليه :

قد استخرت الله تعالى في جمع فصول من محاسن الكلام ؛ الصادرة عن أهل الالهام ؛ تسهّل على المريد صعوبة طريقه ؛ وتشيّد للمراد دعايم صدقه وتحقيقه ؛ وتحمل سامعها على ارتكاب الاشد ؛ في تحرّي الاسد . فمنها ما نقلته من معادنه ؛ ومنها ما فتح الله به من خزائنه . وسمّيتها بـ « محاسن المجالس » ؛ يتحلى بها من وسم نفسه بعلم التذكير ؛ ويطرّز مجالسه منها بالقدر اليسير ؛ فهي شبكة الألباب ، وملاطفة الاحباب ؛ وتحف القلوب من خزاين الغيوب . نفع الله بها مستمعها وقاريها والمحبين فيها بفضله ورحمته ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وعترته .

الفصل الاول : في المعرفة والعلم

فالعالم يستدل الي ؛ والعارف يستدل بي : فالعلماء لي . والعارفون لي . خلق العباد بالأعمال ؛ والمريدون بالأحوال ؛ والعارفون بالهم ؛ والحق من وراء ذلك كله ليس بينه وبين العباد نسب الا العناية ؛ ولا سبب الا الحكم ؛ ولا وقت الا الأزل ؛ وما بقي فعمى وتلبيس . فالأعمال للجزاء ؛ والأحوال للكرمات ؛ والهمم للوصول ؛ وانما يتعين الحق عند اضمحلال الرسم . فالاشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة ، والعلم على القلوب كالأسباب على الغيوب ، وما سوى الحق حجاب عنه ولولا ظلمة الكون لظهر نور الغيب ، ولولا فتنة النفس لارتفعت الحجب ، ولولا العلايق لانكشفت الحقايق ، ولولا العلل لبرزت القدرة ؛ ولولا التكلف لنفعت المعرفة ؛ ولولا القلع لرسخة المحبة ، ولولا خرق لأحرق الاشتياق الأرواح ؛ ولولا العبد لشوهد الرب . فاذا انكشف الحجاب بحسم هذه الأسباب ؛ وارتفعت العوايق بقطع هذه العلايق ؛ كان كما قيل :

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ... ولاح صباح كنت انت ظلامه

فانت حجاب القلب عن سر غيبه ... ولولاك لم يطبع عليك ختامه

فان غبت عنه حل فيه وطيّبت ... على منكب الكثف المصون خيامه

وجاء حديث لا يمل سماعه ... شهي الينا ذكره ونظامه

الفصل الثاني : في الارادة

الارادة حلية العوام ؛ وهي تجريد القصد الى الله تعالى وجزم النية والجد في الطلب له .

وذلك في طريق الخواص نقص وتفرق ورجوع الى الاسباب والنفس : فان ارادة العبد عين حظه ، وهو راس الدعوى . وانما الجمع والوجود فيما يرادبالعبد من الله لا فيما يريد . قال الله تعالى : « وان يردك بخير فلا راد لفضله » فيكون مراده مايراد به مما ورد الشرع بارادته ، واختياره مايختار له بالشرع ؛ اذ لا اختيار للعبد مع ربه وسيده ، ولا ارادة له مع ارادته فيما شرع ، كما قيل :

اريد وصاله ويريد هجري فاترك ما اريد لما يريد

وحكي عن بعض المشايخ انه قال :

« لوقفني الحق بين يديه سبحانه ثم قال لي :أتريد التحف ؟ قلت : لا . قال : اتريد الطرف ؟ قلت : لا . قال : اتريد الترف ؟ قلت : لا . قال :فما تريد ؟ قلت : أريد ان لااريد ، فان ارادتي لاتساوي شيئا ، لاني جاهل من كل الوجوه ، وانت يارب عالم بكل الوجوه ، فاختر لي ما تعلم ان فيه الخيرة ، ولا تجعل تدبيري فيما فيه اختياري وتدبيري » . « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » الآية .

وعن ابي يزيد رضي الله عنه انه قال :

« ركبت مركب الصدق حتى بلغت الوراء ،ثم ركبت مركب الشوق حتى بلغت الفناء . ثم ركبت مركب المحبة حتى بلغت سدرة المنتهى :فناديت : يا أبا يزيد ما تريد ؟ قلت : أريد أن لا اريد ، لأني انا المراد وأنت المريد » .

فصحة الارادة بذل الوسع ، واستفراغ الطاقة ، مع ترك الاختيار ، والسكون الى مجارى الأقدار ، فيكون كاليت بين يدى المغاسل يقلبه كيف يشاء ، كما قيل :

ابى القلب الا ام عمرو فأصبحت صفيته ان زارها او تجنبا

عدوّ لمن عادت وسلم لسلمها ومن قرّبت ليلى احبّ وقربا

الفصل الثالث : في الزهد

وأما الزهد فانه للعوام ايضا ، لأنه حبس النفس عن الملذوذات ، وامساكها بعد تضييق المجوع ، وترك طلب المفقود ، وعن تفضول الشهوات ،ومخالفة داعي الهوى ، وترك ما لا يعني من كل شيء . وهذا نقص في طريق الخواص ، لأنه تعظيم للدنيا واحتباس على ابعادها ، وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها . والمبالاة بالدنيا عين الرجوع الى ذلك ، وتضييع الوقت في منازعة نفسك ، وشهود حسك ، وبقائك معك على حرصك . الا ترى الى قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا » الآية ، والى قوله لمن اعطاه الدنيا

بحذافيرها : « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغيرحساب » : نعافي باطنه من شهودها : وظاهره من التعلق بها .

فالزهد على الحقيقة صرف رغبة القلب اليه .وتعلق انهمة به . والاشتغال به عن كل شيء : ليتولى هو سبحانه حسم هذه الاسباب عنك : وتكون معه كالطفل ابن شهر مع امه : لا ارادة له ولا حكم مع امه : كما قيل عن بعض المريدين (انه) سأل بعض الشيوخ فقال : « اين الشيخ بأي شيء تدفع ابليس اذا اكدك بالوسوسة ؟ فقال له الشيخ : لا أعرف ابليس فاحتاج الى دفعه . نحن صرفنا همتنا اليه ، وملانا قلوبنا بذكره : فكفانا ما دونه » . وفي معنى(ذلك) قيل :

تسترت عن دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الايام ما اسمي ما درت واين مكاني ما عرفت مكاني

الفصل الرابع : في التوكل

واما التوكل فانه للعوام ايضا لأنه كلتك امرك الى مولاك ، والتجاؤك الى علمه ورأفته ، ليدبر امرك ويكفيك همّك . وهذا في طريق الخواص هي عن الكفاية ، ورجوع الى الاسباب . لأنك رفضت الاسباب ، ووقفت مع التوكل . فصار عوضا عن تلك الاسباب ، فكأنك معلق بها رفضته من حيث معتقدك الاتصال عنه .

وحقيقة التوكل عند القوم هو التوكل في تخليص القلب عن علة التوكل : وهو ان يعلم ان الله تعالى لم يترك امرا مهملا ، بل فرغ عن الاشياء وقدّرها ، وان اختلف منها شيء في المقدور . تشوّش في المحسوس ، او اضطراب في المعهود ، فهو المدبّر وشأنه سوق المقادير الى المواقيت . فالمتوكل من اراح نفسه من كدّ النظر ومطالعة السبب ، سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده ، وهو ان يعلم ان الطلب لا يجمع ، وان التوكل لا يمنع : اذ الله بالغ امره ، ومتى طالع بتوكله عوضا ، كان توكله مدخولا ، وقصده معلولا . فاذا خلص من رقّ الاسباب ، ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله تعالى عليه ، كفاه الله كل مهم . كما حكي ان موسى عليه السلام انتهى ذات يوم بأغنامه الى واد كثير الذياب ، وكان قد بلغ به التعب غاية ، فبقي متحيرا : ان اشتغل بحفظ الاغنام عجز عن ذلك لغلبة النوم عليه والتعب ، وان هو طلب الراحة والسكون بالنوم عاثت الذياب بالأغنام . فرمق بطرفه نحو السماء وقال : « احفظ غنمك ، ونفذت ارادتك ، وسبق تقديرك » : ثم وضع رأسه فنام . فلما استيقظ وجد ذيبا واضعا عصاه على عاتقه ، وهو يرعى الاغنام . فتعجب موسى من ذلك ، فأوحى الله عز وجل اليه : « يا موسى ، كن لي كما اريد اكن لك كما تريد ! » .

وحكي ان الجراد وقع على زرع كان لرابعة العدوية . فلما جاءها الخبر خرجت فرأت الجراد

قد ارتكبه ، فرمقت بطرفها نحو السماء وقالت :« الهي ، رزقي قد تكفلت به ، فان شيت فاطعم زرعي هذا اعداءك ، وان شيت فاطعمه اولياءك »،فطار الجراد جميعه عنه ، وكما قيل :

اذا شيت ان ارضى وترضي وتملكي زمامي ما عشنا معا وعنانيا
الا فارمقي الدنيا بعينيّ واسمعي بأذنيّ فيها وانطقي بلسانيا

الفصل الخامس : في الصبر

وأما الصبر فهو من منازل العوام ايضا ،لأن الصبر حبس النفس على المكروه ، وعقل اللسان عن شكواه ، ومكابدة الغصص فيتحمله ، وانتظار الفرج عند عاقبته ، وهذا في طريق الخاصة تجلّد ومقاومة وجرأة ومنازعة ،فان حاصله راجع الى كتمان الشكوى في تحمل الأذى بالبلوى .

وحقيقة الصبر عند القوم الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى ، والاستبشار باختيار المولى . وقيل انه على ثلاثة مقامات ، مرتبة بعضها فوق بعض :

ـ فالأول التصبر ، وهو تحمل مشقة ،وتجرّع غصة ، في التثبّت على ما يجرى من الحكم ، وهذا هو الصبر لله ، وهو صبر العوام.

ـ والثاني الصبر ، وهو نوع سهولة تخفف على المبتلي بعض الثقل ، وتسهل عليه صعوبة الموارد ، وهذا هو الصبر بالله ، وهو صبر المريدين .

ـ والثالث الاصطبار ، وهو التلذذ بالبلوى،والاستبشار باختيار المولى ، وهذا هو الصبر على الله ، وهو صبر العارفين .

وقيل في قول ايوب عليه السلام « مسّني الضر » كان في كل جارحة من جسده حصة من البلاء ـ وكان قد انس بذلك البلاء ، وحصل له التذاذ به كالتذاذ الاجانب بالنعماء . فلما كان في بعض الايام سقطت دودة عن مكانها ففقد اثرها في ذلك المكان ، فقال : « مسّني الضر من فقد ما انعمت به عليّ من لباس انبيائك واوليائك وما اهّلتني له من البلاء » : فان الحق سبحانه ينعم بالابتلاء ، ويبتلي بالنعماء . وقديما قيل في ذلك :

فهل سعتم بصبّ سقيم قلب سليم
منعّم بعذاب معذّب بنعيم

وقال غيره :

ألفت الضنى حتى انست بسكنه فلو زال عن جسمي بكته الجوارح

وقيل ان رابعة العدوية كانت مجتازة ذات يوم مع نفر من اصحابها لبعض حاجتها فضرب رأسها ركن جدار فشجها فرضه ، وجرى الدم على وجهها وثيابها وبدنها ، وهي لا تلتفت الى ذلك ولا تكترث به ، فقال لها بعض اصحابها : اما تحسين بما جرى عليك وهذا الدم قد خضب وجهك وثوبك ؟ فالتفتت اليهم كالمستفرقة لذلك وانتبهت من غفلتها ، ثم اقبلت عليهم كالمعتذرة من غفلتها ، وقالت : يا اخوتي ، التذاذي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الاحساس بما ترون من شاهد الحال .

الفصل السادس : في الحزن

واما الحزن فهو من منازل العامة ، وهو انخلاع عن السرور وملازمة الكآبة لتأسف على فايت ، او توجه لممتنع . وانما كان من منازل العامة لأن فيه نسيان المنّة والبقاء في رق الطبع ، وهو في مسالك الخواص حجاب ، لأن معرفة الله جلّ جلاله جلّى نورها كل ظلمة ، وكشف سرورها كل غمّة ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام:

« بي فافرح ، وبذكري فتلذذ ، وبمعرفتي فافتخر ، فما قليل الفرح الا من الفاسقين ، وانزل لعنتي على الظالمين » .

وقيل ان عتبة الغلام دخل في بعض الايام على رابعة العدوية ، وعليه قميص جديد ، وهو يتبختر في مشيته بخلاف ما سبق من عادته ، فقالت له : يا عتبة ، ما هذا التيه والعجب الذي لم اره من شمايلك قبل اليوم ؟ قال : يا رابعة ، ومن اولى بهذا مني وقد اصبح لي مولى واصبحت له عبدا . وفي ذلك قال قايلهم شعرا :

يبرّحني اليك الشوق حتى اميل من اليمين الى الشمال
ويأخذني لذكركم امتزاز كما نشط الأسير من العقال

الفصل السابع : في الخوف

واما الخوف فهو من منازل العوام ، لأنه انخلاع عن السرور وملازمة الأسف ، والتيقظ له بالوعيد ، والحذر من سطوة العقاب — وهو من منازل العوام ، وليس في منازل الخواص خوف ، لأنه لا يليق للعبد ان يميد مولاه على وحشة من نظره ، ونفرة من الأنس به عند ذكره . قال الله تعالى : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » .

واما أهل الاختصاص فانهم جعلوا الوعيد منه وعدا ، والعذاب فيه عذبا ، لأنهم شاهدوا المبلي في البلاء ، والمعذّب في العذاب ، فمدهوشا وجدوا في جنب ما شاهدوا ، وفي ذلك انشدوا:

سقمي في الحب عافيتي وجودي في الهوى عدمي
وعذاب ترتضون به في فمي احلى من النعم
ما لشر في محبتكم عندنا والله من الم

ومنهم من تحكم عليه سلطان الوجد ، حتى جاوز في الاقتراح الحد : فطلب النعيم في العذاب، حين طلب الأمان منه اكثر الأحباب ، فقال ، وقيل انها لأبي يزيد :

اريدك لا اريدك للثواب ولكني اريدك للعقاب
وكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

ومن كان مستغرقا في المشاهدة ، جايلا في بساط الأنس . فلا يبقى للخوف بساحاته المام ؛ لأن المشاهدة توجب الأنس ؛ والخوف يوجب القبض .

وقيل ان الشبلي رضي الله عنه رأى قوما مجتمعين وشابا قد بسط وضرب ماية سوط فلم يتالم لذلك ؛ ولا استغاث ولا نطق ؛ وكان ضئيل الخلقة ؛ ناحل الجسم . ثم بعد ذلك ضرب سوطا واحدا ؛ فاستغاث وصاح وتالم منه ؛ فانطلق سبيله . فتعجب الشبلي من حاله فتبعه خطوات ثم قال له : يا هذا ؛ لقد عجبت من قوة صبرك مع ضعف جسمك ! فقال له : يا شيخ ؛ انهم تحمل البلايا لا الاجسام . فقال له الشيخ : رأيتك صبرت على المائة وعجزت عن الواحد الاخير وقلت ! فقال : نعم يا أخي ؛ العين التي كنت اعاقب لأجلها كانت في المائة ناظرة الي ، فكنت التذ بما يجري علي لاستغراقي في مشاهدتها ؛ وفي السوط الاخير بقيت مع نفسي فوجدت الألم !

وقيل في قوله تعالى : « والكافرون لهم عذاب شديد » دليل خطابه ان المؤمنين لهم عذاب ولكن ليس بشديد . وانما كان عذاب الكافرين شديدا . لأنهم لا يشاهدون المذنب في العذاب . والعذاب على شهود المذنب عذب ؛ والثواب على الغفلة عن المعطي صعب : « وما لجرح اذا ارضاكم الم » .

فالخوف من منازل العوام : وللخواص الهيبة . وهي اقصى درجة يشار اليها في غاية الخوف . لأن الخوف يزول بالعفو وبالأمن ومنتهاه خوف الشخص على نفسه من العقاب . فاذا أمن من العقاب زال الخوف . والهيبة لا تزول ابدا ؛ لأنها مستحقة للرب تعالى بوصف التعظيم والاجلال . وذلك الوصف مستحق له على الدوام . وهذه الهيبة تعارض المكاشف في أوقات المناجاة ؛ وتصون المشاهد (في) احيان المسامرة ؛ وتقصم المعاين بصدمة العزة . وفيه قال قايلهم :

اشتاقه فاذا بدا افرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله
وأصد عنه تخلدا وأروم طيف خياله

الفصل الثامن : في الرجاء

وأما الرجاء فهو من منازل العوام ــ وهو انتظار غايب وطلب مفقود : وهو من انفع منازل القوم في هذا الشأن . لأنه معارضة من وجه . واعتراض من وجه آخر . وهو وقوع في الرعونة . وفايدة واحدة نطق به التنزيل فقال تعالى : « اولئك يرجون رحمة الله » ــ يريد على العوض من اجر المجاهدة . وقال : « من كان يرجو لقاء الله فان اجل الله لآت . وهو السميع العليم » . ووردت به السنة لفايدة واحدة : وهي تبريد حرارة الخوف لئلا يفضي بصاحبه الى اليأس والقنوط . فهو دواء لمرض الخوف . ولا يعرض ذلك المرض الا لعوام هذه الطايفة . فالخواص : الرجاء عندهم شكوى ومطالعة عوض وعسى . لأن العبد على سبيل البر والألطاف وفي بحر الجود والألطاف غريق . وتحت وابل الاحسان مغمور . ولم يدع له ما يشاهده من مولاه مستزادا . ولا كشف له عما طالعه منه في الدارين مزيدا .

فالرجاء وهن وعقال : وفترة وعلة : وفي المحبة وصمة . قال الله تعلى . « أافكا آلهة غير الله تريدون ؟ ! » فما ترك وجوده ورؤيته لهم غرضا . ولا ابقى وجوده لهم رجاء . ولا غادر حبه لشيء من المكونين في قلوبهم اثرا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » الآية : « وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم » الآية .

وسئل بعضهم : ما مراد العارف ؟ فقال : دوام معروفه . اشار بذلك الى بقاء مراده تعالى وفناء اختيار العارف : لأن معروفه دايم ابدا : فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

وقيل ان بعض العرب ضلت راحلته عنه ، وكانت ليلة مظلمة . فاكثر الطلب لها والبحث عنها . فلم يعثر عليها . فلما طلع الفجر : وانبسط نوره وضياؤه . راى فاقته باركة برحلها في بعض الأودية ، فاستبشر بذلك . وكان قد اجتاز بذلك الموضع والظلام يحول دونها . فرفع رأسه الى السماء مشيرا اليه . فقال :

ماذا اقول وقولي فيك ذو حصر ... وقد كفيتني التفصيل والجملا
ان قلت لا زلت مرفوعا فانت كذا ... او قلت زانك ربي فهو قد فعلا

فكذلك العارفون بالله تعالى لم يبق لهم امل يتعلقون به ولا غرض يسترفدهم فيقفون معه . فان في اقل اقل ما لاحظهم به اجل اجل ما تنتهي اليه آمالهم . وتقف عنده احوالهم . ولهذا اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نعيم اهل الجنة فقال لهم : « فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر : ذخرا من بله ما اطلعتم عليه » . فاذا كان ذلك لهم ــ وهو حظ النفس من الجنة فما ظنك بما لهولاء ــ وهو حظ القلوب من الله تعالى ! وفي ذلك قال قايلهم :

قولوا لآمالي الا فابعدي ... قد انجز الاحباب لي موعدي
قد كنت قبل اليوم متانا ... منك بخل مشفق مسعد

وان نسيم الروض من وصلكم هبت فلي عندك ظل ندي
وحيث لاحت لي اعلامهم فليس بي فقر الى مرشد

قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

الفصل التاسع : في الشكر

وأما الشكر فهو من منازل العوام ، وهو رؤية النعمة من المنعم ، والثناء على المنعم ، وقبولها منه ، ورؤيته اولا بعين القلب والبصيرة ، وشكر القلب له وحده عليها ، اذ كانت منه الى العبد من غير سابق ولا لاحق ، ثم رؤية النعمة بعدها منه ، والثناء بها ، والاشتغال بذكرها ، وهو من اضعف منازل القوم ، لانه حجاب عنه ، ولأنه معارضة طوله ونعته بحولك وقولك ، ومقابلة نعمته بقولك تصور منك . وانما لم يكن ذلك من منازل الخواص ، لأنهم رأوه قياما بمكافاة المعطي ، وهربا من رق المنة ، او استراحة من حق الجود واداء لحق النعمة . قال تعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

فالشكر عند القوم ان لا تشهد في حال النعمة سوى المنعم اولا ، فاذا شهده عبودية استعظم منه المنعم اذ لا حق للعبد عليه ، واذا شهده حيا استحلى منه النعمة . شعر :

وما نجرح اذا ارضاكم الم

واذا شهده تفريدا ، فانيا عما سواه ، لم يشهد منه شدة ولا نعمة ، فيكون في شغله به واستغراقه فيه وغيبته في حال شهوده شغل به عن معرفة المنحة والمحنة والنعمة والشدة ، في حال فنائه كالنسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام وبهرهن حسنه ، فقطعن عن انفسهن ، وقطعن ايديهن ، وغاصت السكاكين بعد قطع الأترج حتى قطعن ايديهن ، وهذا ما يطرأ من مشاهدة مخلوق لمخلوق ، فلا بعد في القياس الخلي ان يطرأ على العارف بالله تعالى من مشاهدة فردانية الذات وصمديتها وقدمها ، وصديتها وبقائها ، وحياته التي لا يعقبها موت ، وعلمه الذي لا يعقبه جهل ، وارادته التي لا يعقبها كراهة ، وقدرته التي لا يعقبها عجز ، وسمعه الذي لا يعقبه صمم ، وبصره الذي لا يعقبه عمى ، وكلامه الذي لا يعقبه خرس وادراكاته التي لا تنفيها اضداد ، وشاهد منه جمال هذا الوجه وهذه الصفات ، وشاهد جلاله عن النقايص من الجسمية والجوهرية والعرضية وعن كل ما يطرق نقصه ، وشاهد افتقار الأفعال اليه ، واستحالة وجودها دونه ، فينشد لا محالة في حاله :

رأيت ربي بعين قلبي فقلت لا شك انت أنا
انت الذي حزت كل أين فحيث لا اين ثم أنا
وجزت حد الدنو والبعد لا يعلم الأين اين ثم أنا
احطت علما بكل شيء وكل شيء تراه أنا

وفي فنـــائي فنـــا فنـــائي وفي فنـــائي وجـــدت انتـــا
فمـــن بالعفـــو يـا الهـــي فلـــت ارجـوا ســـواك انتـــا

وكما قيل :

لـــت ادري اطـــال ليلـــي ام لا كيـف يـــدري بـــذاك مـــن يتقلّـى
لـــو تفرغـــت لاستطالـــة ليـــلي ولرعـــي النجـــوم كنـــت مخـــلا
ان للعاشقـــين عـــن قصـــر الليـــل وعـــن طولـــه مـــن الهجـــر شغـــلا

مع ان الشكر لا طريق الى القيام به ، ولاسبيل الى الخروج من عهده واجبه ، فانه يتناهى ولا ينتهي : اذ شكرك لله تعالى على أنعمة نعمةمستجدّة يجب له عنك فيها الشكر ، فالشكر يفتقر الى الشكر . فمتى تقوم بحقه لا وفيه قيل :

ومتـــى اقـــوم بشكـــر مـــا أوليتنـــي والقـــول فيـــك علـــو قـــدر القايـــل

وقال اخر :

اذا كـــان شكـــري نعمـــة اللـــه نعمـــة عليّ لـــه فيهـــا فقـــد وجـــب الشكـــر
فكيـــف بلـــوغ الشكـــر الا بفضلـــه وان طالـــت الأيـــام واتصـــل العمـــر
فمـــا نـــي عـــذر غـــير انـــي مقصّـــر وعـــذري اقـــراري بأن ليـــس لـــي عـــذر
اذا عـــمّ بالنعمـــاء عـــمّ سرورهـــا وان خصـــّ بالبلـــواء اعقبهـــا الآجـــر
فمـــا منـــه الا منّـــة فـــوق نعمـــة تضيـــق بهـــا الاوهـــام والـــرّ والجهـــر

الفصل العاشر : في المحبـة

واما المحبة فهي أول أودية الفناء والعقبة التي يتحدر منها على منازل المحو ، وهو آخر منزل تلتقي فيه مقدمة العامة بساقة الخاصة ، ومادونها اغراض لأغراض العوام منها شرب وللخواص شرب . قال الله تعالى : « قد علم أناس مشربهم » .

وقد اختلفت اشارات اهل التحقيق منهم في العبارة عنها ، وكل من القوم نطق بحسب ذوقه ، وافصح عنه بمقدار شربه وذوقـه . وهي ـ على الاجمال قبل ان ننتهي الى التفصيل ـ وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص من الانقياد لغير محبوبه ،وقيل ايثار المحبوب على غيره . وقيل موافقته فيما ساءه وسرّه ، ونفع وضرّ . وفي معناه انشدوا :

واهنتنـــي فأهنـــت نفـــسي صـــاغرا مـــا من يهـــون عليـــك ممـــن يكـــرم
احببـــت اعـــدائي فصـــرت احبّهـــم ان كـــان هـــذا منـــك حظـــي منهـــم

وقيل المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد ،ومفارقة المضجع وانت راقد ، والسكون وأنت ظعن ، ومفارقة المألوف وأنت مستوطن . وقال قوم ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها ، فان الغيرة من أوصاف المحبة ، والغيرة تأبي الا الستر والاخفاء . وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها وانكشف عن سرها فليس له منها ذوق ، وانما حركة وجدان الرائحة . ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف . فالمحبة الصادقة لا تظهر على المحب بلفظه ، وانما تظهر بشمائله ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب ، لموضع امتزاج الاسرار والقلوب . وفي معناه قيل :

تشير فأدرى ما تقول بطرفها فأطرق طرفي عند ذاك فتعلم
تكلم منها في الوجوه عيونتا فنحن سكوت والهوى يتكلم

وأما محبة العوام فانها تنبت من مطالعة المنة ،وتثبت باتباع السنة ، وتنمو على الاجابة للعناية . وهي محبة تقطع النفوس ، وتقد الخدمة ،وتسلي عن المتاب . وهي في طريق العوام عمدة الايمان .

وأما محبة الخواص فهي محبة خائفة تقطع العبارة ، وتدق الاشارة ، ولا تنتهي بالنعوت ، ولا تعرف الا بالحيرة والسكوت . كما قيل :

وقد ابصرنا الحب وجدا وحيرة وقد ضمنا بعد التفرق محضر
الست الذي كنا نخبر انه ولوع بذكرانا فلم ليس تذكر
فرد عليها الوجد : انيت ذكره فلم يبق الا زفرة وتحير

وحكي ان عيسى عليه السلام مر في بعض اسفار سياحته على جبل فيه صومعة ، فدنا منها فوجد عابدا قد انحنى ظهره ، ونحل جسمه ، وبلغ به الاجتهاد اقصى غايته . فسلم عليه عيسى عليه السلام ، وعجب مما رأى من شواهده ، فقال له عيسى : منذ كم انت في هذه الصومعة ؟ فقال : منذ سبعين سنة أسأله حاجة واحدة فما قضاها لي بعد ، فمساك يا روح الله ان تكون شفيعي فيها ، فلعلها تقضي لي . فقال عيسى عليه السلام : فما حاجتك ؟ قال : سألته سبحانه ان يذيقني ذرة من خالص محبته . فقال عيسى : انا ادعو الله تعالى لك . فدعا له عيسى عليه السلام في تلك الحالة ، فأوحى الله اليه : قد قبلت شفاعتك فيه ، وأجبت دعوتك . فعاد عيسى عليه السلام بعد ايام الى الموضوع لينظر ماكان من حال العابد ، فرأى الصومعة قد وقعت ، والأرض التي تحتها قد ظهر فيها شق عظيم . فنزل عيسى عليه السلام في ذلك الشق وانتهى فيه فراسخ ، فرأى العابد في مغارة تحت ذلك الجبل واقفا شاخصا ببصره ، فاتحا فاه ،فسلم عليه فلم يرد عليه جوابا ، فعجب عيسى عليه السلام من حاله ، فهتف به هاتف : يا عيسى انه قد سألنا مثل ذرة من خالص محبتنا وعلمنا انه لا يقدر على ذلك ، فوهبناه جزءا من سبعين جزءا من ذرة ،وهو فيها حائر كما ترى ، فكيف لو وهبنا له اكثر من ذلك .

نسبة الخواص من هذه المعادن رشحت ،وبهذه الأوصاف عرفت . فعند القوم ان كل ما كان من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته . اذ غفل عن قوله تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » الآية .

وانما عين الحقيقة عند القوم ان يكون قياماباقامة الحق له ؛ محبا بمحبته له ، ناظرا بنظره ، من غير ان يبقى منه بقية تقف على رسم ، او تتعلق باثر ، او توصف بنعت ، او تنسب الى وقت ، وكما قال تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا » — يريد قياما بحق الحق وباقامته لهم ، وقعودا عن الدعوى فيه . « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » . « وما تشاؤون الا ان يشاء الله » . « ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون » . صم بكم بغير الحق لا يسمعون ، وبغير ذكره لا ينطقون .

الفصل الحادي عشر : في الشوق

وأما الشوق فهو من منازل العوام ،اذ الشوق هو حبوب القلب الى شيء غايب بحضر ، واعواز الصبر عن فقده ، وارتياح للسر الى طلبه ، وهو من اضعف منازل القوم .

وأما الخواص فهو عندهم علة عظيمة ؛ لأن الشوق انما يكون الى غايب . ومذهب هذه الطايفة انما قام على المشاهدة « الم تر الى ربك كيف مد الظل » الآية . فالتفريق عندهم ان يكون العبد غايبا والحق حاضرا . ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولا سنة صحيحة ، لأن الشوق مخبر عن بعد ، ومشير الى غايب ، ومتطلع الى ورك . وقدقال تعالى : « وهو معكم اينما كنتم » الآية . وفي معنى هذا قيل :

ولا معنى لشكوى الشوق يوما ... الى من لا يزول عن العيان
اودعكم واودعكم جناني ... واسبل عبرة مثل الجمان
ولو شاء الاله لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الزمان

وحكي ان الشبلي رضي الله عنه رأى مجنونا في بعض الأيام يعدو والصبيان خلفه يرمونه بالأحجار وقد أدموا وجهه وفتحوا رأسه فقام له الشبلي في زجرهم عنه . فقالوا : يا شيخ دعنا نقتله لأنه كافر . قال : وما الذي بان لكم من كفره ؟ فقالوا : انه يزعم انه يرى ربه ويحادثه فقال : امسكوا عني قليلا حتى أسأله . ثم تقدم الشبلي اليه فوجده يتحدث ويضحك ويقول في أثناء ذلك : هذا جبريل منك تسخط علي هؤلاء الصبيان يفعلون بي هكذا ! فتقدم اليه وقال له : يا أخي أصحيح ما يقول هؤلاء الصبيان عنك ؟ قال : يا شبلي وما يقولون ؟ قال : يقولون انك ترى ربك وتحادثه . فصاح صيحة عظيمة ثم قال : يا شبلي ،وحق من تيمني بحبه ، وهيمني به بين بعده وقربه ، لو احتجب عني طرفة عين ، لتقطعت من الم البين . ثم ولى وانشا يقول :

خيالـــك في عيني وذكـرك في فمـي ومثـــواك في قلبـــي فأيـن تغيـــب
خليلـــي مـا للعاشـــقين قلـــوب ولا للعيـــون (النـاظرات) ذنـــوب

الفصل الثاني عشر : في منازل الخاصـــة

فهذه جميعها علل انتب الخواص منهـا ،واسباب انفصلوا عنها ، فلم يبق لهم مـع الحق ارادة ، ولا في عطائه شوق الى استزادة،فهو منتهى مرادهم ، وغاية رغبتهم ، فيعتقدون ان مادونه قاطع عنه . قال الله تعالى : « قل الله ثم ذرهـم فيخوضهم يلعبون » .

تزهدهم جميع الهمة عن تفرقات الكون ،لأن الحق عافاهم بنور الكشـف من التعلـق بالأحوال ، قال الله تعالى : « انا اخلصناهم بخالصةذكرى الدار » .

وتوكلهم رضاهم بتدبير الحق وتخلصهم منتدبيرهم وفـراغ همهم من اجالتها في اصـلاح شانهم ، لوقوفهم على فراغ المدبر منها ، ومسّرهاعلى عمله بمصالحهم فيها ، وثوسهـم مطمئنـة بذلك . قال الله تعالى : « يأيتها النفس المطمئنةارجعي الى ربك راضية مرضية » .

وحيرهم شـونهم قلوبهم عن خواطر انسوء ،لانه ليس الله تعالى قضاء عار من الرافة ، خارج عن الرحمة ، قال الله تعالى : « وليبلي المؤمنين منهبلاء حسنا » .

وحزنهم يأسهم عن انفسهم الأمارة بالسوء ،قال الله تعالى : « ان الانسان لربّه لكنود » .

وخوفهم هيبة الجلال لا خوف العذاب ،لان خوف العذاب مناضلة عن النفس ، وهيبته سبحانه تعظيم للحق ، ونسيان النفس . قال الله تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » . وقال الله تعالى في حق العوام « يخافون يوما تتقلب فيـهالقلوب والأبصار » .

ورجاؤهم تلوّهم الى الشراب الذي هـم فيه غرقى ، وبه سكرى . قال الله تعالى : « الم تر الى ربك كيف مدّ الظل » . وقال في ذكـرالواسطة قبل ذكره لـه على الافراد : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » الآية .

وشكرهم سرورهم بوجودهم ، ورؤيتهـمالنعمى اوجدهم ، ومن رضي فله الرضا :

وعين الرضـا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

« رضي الله عنهم ورضوا عنه » الآيـة .قال الله تعالى : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بـه » الآية .

ومحبتهم فناؤهم في محبة الحق واحبابه ،فان المحاب كلها ضلت في محبة الحق وتصاغرت واضمحلت . قال الله تعالى : « فماذا بعد الحقالا الضلال » .

وشوقهم ربهم من رسمهم وسماتهم استعجالا للوصول الى غاية المنى . قال الله تعالى : « وعجلت اليك رب لترضى » الآية .

الفصل الثالث عشر : النظر الى الله تعالى

فالارادة ، والتوبة ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والحزن ، والخوف ، والرجاء ، والشكر ، والمحبة ، والشوق ، والانس ، منازل اهل الشرع السايرين الى الحقيقة . فاذا شهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها احوال السايرين ، ووصلوا الى مقام الفناء عما سواه سبحانه . فان ما قبل هذه المقامات مرادة الى هذه الغاية وهي النظر الى الله تعالى ودخول الجنة . اذ قال سبحانه : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » ، وفسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة والنظر الى الله عز وجل .

قال الله تعالى : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » . قال الضحاك: « ارجعي الى جسدك » ، « فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . وقد كانت قبل هذا في بدايتها امارة بالسوء ، ثم « قد افلح من زكاها » الآية ، ثم صارت لوامة « فلا اقسم بالنفس اللوامة » : والتايب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم صارت مطمئنة بذكر الله « الا بذكر الله تطمئن القلوب » : « ادخلوها بسلام آمنين » ، « كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية » : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » ، « سلام قولا من رب رحيم » .

ألم تر كيف فني منهم ما لم يكن للدخول الجنان اهلا ، وبقي منهم ما لم يزل ؟ وكما قلت في ذلك :

الا قل لمن يدعي حبنا ... ويزعم ان الهوى قد عاق
ولو كان فيما ادعى صادقا ... لكان على النفس بعض الورق
فاين النحول واين الذبول ... واين السهاد واين الأرق
لنا الخايضون بحار الهلاك ... اذا لمعت نارنا في الغسق
فهم شاخصون الى ضوئها ... وقد حدقوا نحوها بالحدق
وباتوا على قدر احوالهم ... فهم في الوصول اليها فرق
فقوم على البعد في ضوئهم ... يسيرون في واضحات الطرق
وقوم اتوا يخبطون الوها ... د عفوا اليها بتلك الملق
الى ان تبدى لهم لايح ... من الوجد ابدى كمين الحرق
فغابوا عن الوجد عند الوجود ... وكل الى ضوئها مستبق

فاين ولا اين حيث انتهوا وكيف واكبادهم تحترق
فحتى وان كنت ذا فطنة سارسة الجد او تخترق
فما برحوا الخوض في لجها وامواجها فوقهم تصطفق
الى ان ترنم حاديهم ببيتين قالهما من سبق
« تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
راى لجة خلفها موجة فلما توسط فيها غرق »
فحطوا حبال مراسيهم وغطوا غطاهم وانطبق

وفي معناه قيل :

ارى طالب الدنيا وان طال عمره ونال من الدنيا سرورا وانعما
كباني بني بنيانهم فاتمه فلما استوى ما قد بناه تهدما

وفيه عرض لي :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

فهذا حال من يطلب الملك الكبير في دار النعيم الخالد المقيم . ايستكثر مع ذلك ان يصلي لله ركعتين ، او يتصدق بدرهمين ، او يسهر ليلتين اكلا . بل لو كان له الف نفس والف عمر الدنيا واكثر فيبذل ذلك كله في هذا المطلوب العزيز ، لكان ذلك قليلا . ولئن فتر بعده بما طلب ، لكان ذلك غبنا عظيما . وفضلا من الله تعالى كبيرا . فتنبه ايها المسكين من رقدة الغافلين !

الكرامات الاربعون

ثم اني تأملت ما يعطيه الله سبحانه للعبد اذا اطاعه ، ولازم خدمته ، وسلك هذه الطريقة عمره ، فوجدها على الجملة اربعين كرامة : عشرون منها في الدنيا ، وعشرون في العقبى .

أ ـ كرامات الدنيا :

اما التي في الدنيا فان يذكره الله سبحانه ويثني عليه ، وأكرم بعبد يكون رب العالمين في ذكره وثنائه .

والثانية ان يشكره جل جلاله ويعظمه ، ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به ، فكيف بالله الأولين والآخرين ؟ !

والثالثة ان يحبه الله تعالى ، ولو احبك رئيس محلة او امير بلدة لافتخرت بذلك وانتفعت به في مواطن عديدة ، فكيف بمحبة رب العالمين ؟ !

والرابعة ان يكون له وكيلا يدبر اموره .

والخامسة ان يكون لرزقه كفيلا يوجهه اليه من حال الى حال ، من غير تعب او بال .

والسادسة ان يكون له نصيرا يكفيه لكل قاصد سوء .

والسابعة ان يكون له انيسا لا يستوحش بحال ، ولا يخاف التغير والزوال والاستبدال .

والثامنة غني النفس فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا واهلها ، بل لا يرضى ان يخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها .

والتاسعة رفع الهمة ، فيترفع عن التلطخ بقاذورات الدنيا واهلها ولا يلتفت الى زخارفها وملاهيها ترفع الرجال الالبّاء عن ملاعبة الصبيان والنسوان .

والعاشرة غني القلب ، فيكون اغنى من كل الدنيا لا يزال طيب النفس ، فسيح الصدر ، لا ينزعه جدب ، ولا يهمه عدم .

الحادية عشرة نور القلب ، فيهتدي بنور قلبه الى علوم وأسرار وحكم لا يهتدي الى بعضها غيره الا بجهد جهيد ، وعمر مديد .

الثانية عشرة شرح الصدر ، فلا يضيق ذرعا بشيء من محن الدنيا ومصايبها ، وتلون الناس ومكايدهم .

الثالثة عشرة المهابة والموقع في النفوس ، فتحترمه الأخيار والأشرار ، وبهابة كل فرعون وجبار .

الرابعة عشرة المحبة في القلوب ، « سيجعل لهم الرحمن ودا » . فترى القلوب كلها مجبولة على حبه ، والنفوس كلها مجبولة على تعظيمه واكرامه .

الخامسة عشرة البركة العامة في كل شيء : من كلام او نفس او فعل او ثوب او مكان — حتى يتبرك بتراب وطئه ، وبمكان يعيش فيه ، وبانسان صحبه او رآه حينا . قال البغداديون : قبر معروف الكرخي ترياق مجرب يفرج الله تعالى به من كل علة .

السادسة عشرة يتخير الارض من البر والبحر : ان شاء سار في الهواء ، او مشى على الماء ، او قطع وجه الارض بأقل من ساعة .

والبهايم وغيرها ، فتحبه الوحوش وتتعشق لـــه السابعة عشرة تسخير الحيوان والوحـــوش الاسود .

الثامنة عشرة ملك مفاتيح الارض : فحيثما يضرب يده فله كنز ان اراد ، وحيثما تضرب رجله فله عين ماء ان احتاج ، وايضا نزل فله مايـــدة تحضر ان تشـاء الأكل .

التاسعة عشرة القيادة والوجاهـــة على باب رب العزة ، فيبتغي الخلق الوسيلة الى الله تعالى بخدمتـــه ، ويستنجح الحاجـــة من الله تعـــالى بوجاهته وبركته .

العشرون اجابة الدعوة من الله تعالى ، فلا يسأل شيئا الا اعطاه الله تعالى اياه ، ولا يشفع لأحد الا شفع (له). وأقسم علي الله لأبرّه(...)ان منهم من لو اشار الى جبل لزال تلا يحتـــاج الى التفوه باللســـان ، ولو خطر ببالـه شيء لحضر ولا يحتاج الى الاشارة باليد . فهذه كرامـــات في الدنيا .

ب ــ كرامات الآخرة :

واما التي في الآخرة والعقبى ، فالواحـــدة والعشرون ان يهون الله عليـــه سكرات الموت ، وهي التي وجلت منها قلوب الاوليـــاء صلوات الله وسلامه عليهم حتى سألوا اللـــه ان يهوّنهـــا عليهم حتى ان منهم من يكون الموت عنده مثـــل شربة الماء الزلال للظمآن . قال الله تعـــالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » .

الثانيـــة والعشـــرون التثبت على المعرفـــة والايمان ــ وهو الذي منه الخوف والفـــزع ، وعليه البـــكاء والجزع . قال الله تعالى جل ذكره : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة » .

الثالثة والعشـــرون ارسال روحـــه بالروح والريحان ، والبشر والأمان ، لقوله سبحانـــه : « لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، فلا يخاف مما يقدم عليه في العقبى ولا يحزن على ما خلفه في الدنيا .

الرابعة والعشرون الخلود في الجنان .

الخامسة والعشرون التحيات والبشر من ملائكة السموات لروحه بالاكرام ، والالطـــاف والانعام ، ولبدنه في العلانيـــة بتعظيم جنازتـــه والمزاحمة على الصلاة عليه والمبادرة الى تجهيزه ودفنه ، ويرجون بذلك اكبر ثواب ويعدونه اعظم غنيمة .

السادسة والعشرون الأمان من فتنة سؤال القبر ، وتلقين الصواب فيأمن الهول .

السابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون في روضة من رياض الجنة الى يوم القيامة .

الثامنة والعشرون ايناس روحه (....) واكرامها فتجعل في اجواف طير خضر فلا يزال تعلق في شجر الجنة حتى يبعثه الله الى جسده مع (....) « فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله » .

التاسعة والعشرون(*) .....

الثلاثون الحشر في العز والكرامة من حلل وتاج وبراق وبياض وجه ونوره . قال الله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » .

الحادية والثلاثون الأمن من الأهوال يوم القيامة لقوله تعالى : « ام من يأتي آمنا يوم القيامة » .

الثانية والثلاثون ايتاء الكتاب باليمين : ومنهم من كوفي، راسا .

الثالثة والثلاثون تيسير الحساب : ومنهم من لا يحاسب اصلا .

الرابعة والثلاثون (تخفيف) ثقل الميزان ،ومنهم من لا يوقف للوزن اصلا ويقال (لهم) : « ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ،لا يسعون حسيها وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون » .

الخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم يشرب شربة لا يظمأ بعدها ابدا .

السادسة والثلاثون جواز الصراط والنجاة من النار حتى ان منهم من لا يسمع حسيسها وتخمد له النار .

السابعة والثلاثون الشفاعة في عرصات القيامة نحوا من شفاعة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامة عليهم .

الثامنة والثلاثون ملك الأبد في الجنة .

التاسعة والثلاثون الرضوان الأكبر .

الأربعون لقاء رب العالمين اله الأولين والآخرين بلا كيف جل جلاله .

(*) التاسعة والعشرون لا وجود لها في الاصل .

ثم اقول : وانما عددت تلك على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصورة ونقصة . ومع ذلك فلقد اجملت واوجزت وذكرت من الاصول والجمل ، ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب . الا ترى انّي جعلت خلقة ملك الأبد خلقة واحدة . ولو فصلتها لا رتمت الى اربعين خلقة من نوع الحور العين والقصور واللباس وغير ذلك . ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذي هو خالقها ومالكها . وأى مطمع لنا في ذلك وربنا سبحانه يقول : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وان المفسر يقول قوله تعالى « لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي » : ان هذه الكلمات التي يقول سبحانه لأهل الجنة بالطف والاكرام . ومن تكون حالته هذه فاني يبلغ جزء من الف الف جزء منه ونحن بشر ويحيط به علم مخلوق ؟ كلا بل تقاعدت عنه الهمم ، وتقاصرت دونه العقول ، وحق ان يكون ذلك كذلك ، وهو عطاء القدير العليم ، على مقتضى الفضل العظيم ، وحسب الجود القديم « الا لمثل هذا فليعمل العاملون » . وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم . فليعلموا ان ذلك كله لأقل قليل في جنب ما هم اليه محتاجون ، واياه يطلبون ، وله يتعرضون .

ولتعلموا ان العبد لابدّ له في الجملة من اربعة : العلم بذات الله اولا ، وهو الاحد الصمد . وبصفاته التي هي حياته وعلمه وارادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه الذي ليس بحرف ولا صوت — وادراكاته وهي التقابض عنه والآفات لكونه سالما ، وثبوت اسمائه الحسنى .

ثم العمل المتقن من علم الذي هو فرض عينه — والاخلاص والخوف : ويعلم اولا الطريق باعتقاد وجوب النظر والا فهو اعمى . ثم يعمل بالعلم — والا فهو محجوب . ثم يخلص العمل — والا فهو مغبون ، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات الى ان يحذر الأمان — والا فهو مغرور . واقد صدق ذو النون رحمه الله حيث قال :

« الخلق كلهم موتى الا العلماء : والعلماء كلهم موتى الا العاملون ، والعاملون كلهم مغترون الا المخلصون . والمخلصون كلهم على خطر عظيم » .

قلت : والعجب ثم العجب من اربعة : احدهم عاقل غير عالم اما يهتم بمعرفة ما بين يديه ؟ اما يتعرف ما هو مقدم عليه عند الموت بالنظر في هذه الدلايل والعبر . والاستماع الى هذه الآيات والنذر ، والانزعاج لهذه الخواطر والهواجس وحبس النفس ؟! قال الله تعالى : « أو لم يتفكروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ؟ » . وقال تعالى : « الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ » .

والثاني من عالم غير عامل أما يتذكر ما يعلمه ما يلقى بين يديه من الأهوال العظام ، والعقبات الصعاب . وهذا هو « النبأ العظيم الذي انتم عنه معرضون » ؟!

والثالث من عامل غير مخلص الا يتأمل قوله تعالى : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » ؟!

والرابع من مخلص غير خائف اما ينظر في معاملاته جلّ جلاله مع أصفيائه واوليائه بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق صلى الله عليه وسلم : « ولقد أوحينا اليك والى الذين من قبلك » الآيات . ونحوها حتى كان عليه الصلاة والسلام يقول : « شيبتني هود واخواتها » ـ يريد قوله « استقم كما أمرت » .

ثم جملة الأمر وتفصيله ما تلاه رب العالمين في اربع آيات من الكتاب العزيز قوله جلّ وعزّ : « افحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ » . ثم قال جلّ اسمه : « ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » . ثم قال جلّ من قائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » ، ثم اكمل الكلّ فقال وهو أصدق القائلين : « ومن جاهد فينا فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنيّ عن العالمين » .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّ بالقدم ، او جرى به القلم ، ونستغفره من اقوالنا التي لا توافق اعمالنا ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنّع وتزيّن في كتاب سطّرناه ، او كلام قلمناه ، او علم افدناه ، ونسأله ان يجعلنا وإياكم ـ معشر الاخوان ـ بما علمنا به عاملين ، ولوجهه مريدين ، وأن لا يجعله وبالا علينا ، وأن يضعه في ميزان الصالحات اذا ردّت اعمالنا الينا ، انه جواد كريم .

فهذا آخر ما أردنا ان نذكره في كيفية سلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود ، وصلى الله على خير مولود ، دعا الى افضل معبود ، محمد صلى الله عليه وسلم . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم السلام عليكم معشر الطالبين والعابدين ، عليكم منا ورحمة الله وبركاته ما قرئ فيكم الى يوم الدين .

تمّ وكمل والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتتنزل البركات . اللهم انفعنا بمحبتهم ، واحشرنا في زمرتهم ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين . وكان الفراغ من تعليقه في اليوم المبارك : يوم السبت خامس شهر ذي الحجة من شهور سنة تسع وخمسين وثمان مائة بسطح الجامع الأزهر على يد فقير رحمة ربه محمد المجسي بن محمد بن احمد الفقاعي ، رحمه الله ورحم والديه وغفر له ولمن نظر فيه ، ولمن دعا له بالمغفرة والرحمة ولجميع المسلمين ، وصلى الله على سيد الخلق اجمعين وآله وصحبه وذريته الطاهرين الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

وقيل لا يغرّنكم صفاء الأوقات ، فان تحتها غوامض الآفات . فكم من ربيع نوّرت اشجاره وأزهاره وظن به اهله فلم يلبثوا ان اصابتهم جائحة سماوية ، قال الله تعالى : « أتاها امرنا ليلا او

نهارا فجعلناها حصيدا كـأن لم تغن بالأمس » ،وكم من مريد لاحت عليه انوار الارادة ؛ وظهرت عليه آثـار السـعادة ، وانتشـرت صعبة (؟) في الآفاق : وعقدت عليها الخناصر باطباق ، وظن انه من جملة اوليائه ، وأهل صـفائه : بدّل بالكـدر صفاؤه ، وبالغسق ضياؤه ؛ وأنشدوا :

حسّنت ظنّك بالأيـام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يـأتي به القدر

وسـاعدتك الليـالي فاغتررت بها وعند صفو الليـالي يحدث الكدر

كملت « محاسن المجالس » بحمد الله تعالى وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه افضـل التسـليم والحمد للـه رب العالمين . وكان الفراغ منها في يوم الاربعاء ثاني عشر شهر محرم مفتتح عام خمسين وسبعماية .